مجلة العلوم الإنسانية
Journal of Human Sciences
www.Suj.sebhau.edu.ly ISSN 2707-4846
Received 08/10/2020 Revised 08/12/2020 Published online 31/12/2020

وسطية الأمة الإسلامية رؤية مقاصدية في مفهوم الوسطية

إبراهيم المهدي محمد كيلاني
قسم الدراسات الإسلامية–كلية التربية أوباري–جامعة سبها، ليبيا
للمراسلة: ibr.kilowni@sebhau.edu.ly

الملخص أغلب المصادر تنظر للوسطية نظرة عقدية مفادها الوقوف بين الإفراط والتفريط، مما يعني التوازن بين الروحي والمادي من حيث التدين، علاوة على أنها منزلة أخروية للأمة الإسلامية تحكم بها بين الأمم يوم القيامة. بينما تقدم هذه الورقة الوسطية على أنها شأن حضاري مفاده أن الأمة مأمورة بتصدر المشهد الإنساني في كل جوانب الحياة لتغدو مانحة براءات الاختراع لباقي الأمم، مسترشدة بالقرآن والسنة وما بث فيهما من تصريحات أو تلميحات وإشارات لمواطن الريادة في النتاج الإنساني، وهذا بعض ما يفهم من معاني الشهادة على الناس وشهادة الرسول على الأمة.

الكلمات المفتاحية: تلاوة، تزكية، تعليم، استنباط، مقدرات الحياة، بواعث التدين.

The Moderation of Islamic ummah Seeing intentions in the concept of moderation

Ibrahim Al-Mahdi Muhammad Kilani
Department of Islamic Studies, College of Education Ubari,Sebha University, Libya
Corresponding author: ibr.kilowni@sebhau.edu.ly

Abstract The most sources see the moderation as a dogmatic view means standing between religionisom and negligence which means making balance between the spiritual and material in the term of religiously, in addition to it being hereafter status for the Islamic Ummah to govern between nations on the Day of Resurrection. While we presented this paper; the moderation as a civilizational affairs that the ummah is commanded to lead the human scene in all the aspects of life, to become the patent giver to the rest of nations guided by the quran and Sunnah and what they hav from hints and signs to the increased places in the human product and this is what we understand from the meaning of the witness on the people and the witness of the messenger on the ummah.

key words: Recitation, Recommendation, Teaching, Induction, Life Capabilities, Religious Motivations.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

الوسطية تعد من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر للمكانة التي تشغلها في الحياة العامة، ولما تستحوذ عليه من مساحة في وسائل الإعلام، وفي البحوث العلمية، والمحافل السياسية والفكرية على اختلاف مشاربها، وأكثر ما يبرز النقاش حول الوسطية للعلن عند حدوث ما يتسم بالعنف المادي أو اللفظي أو الفكري سواء بين المسلمين، أو بينهم وبين غيرهم.

ولا يخفى أن تناول هذا الموضوع في الفكر الإسلامي ليس بجديد؛ فقد تناوله أوائل علماء المسلمين في دراساتهم المختلفة، ولعل من أبرزها تفاسير القرآن الكريم عندما تناقش معنى الآيات التي تتضمن إشارة إلى الوسطية، وغالبا ما يدور النقاش عندئذ حول بيان الاشتقاقات اللغوية للكلمة، ثم تدرج الاهتمام بالفكرة حتى تأسيس مراكز بحثية تهتم بالوسطية وهي منتشرة في دول عديدة [1].

ولأن هذا الموضوع لا يزال حيا ومباشرا في حياة المسلم فردا أو أمة، كان من المفيد الالتفات لدراسته وبيان مفاهيمه، والمراد به، ومكانته من بنية أمة المسلمين، واستشراف الرسائل التي تحملها آيات القرآن الكريم في هذا الاتجاه، وكيف أن الأمة الإسلامية لا تحقق الغاية التي من أجلها كانت إلا بتحقيق الوسطية واقعا معاشا في حياتها على اختلاف جوانبها.

وفي سبيل استيفاء هذه الدراسة حقها، وإجلاء مرتكزاتها التي ينبغي أن تفقهها الأمة في شتى مستوياتها (خوصاها وعوامها) قسمتها إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول في مفهوم الوسطية لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني تحدثت فيه عن أدلة الوسطية من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث تناول مظاهر الوسطية في التشريع الإسلامي.

المطلب الرابع بينت فيه الدعائم التي تقوم عليها الوسطية.

المطلب الخامس خصصته لنواقض الوسطية.

هذا وقد سلكت المنهج التحليلي في البحث محاولا بذلك سبر مضمون ما اقتبسته من النص الشرعي لإثبات الدعوى التي ذهبت إليها في هذا المقام.

المطلب الأول

مفهوم الوسطية

الوسطية كلمة تفيد التوسط بين طرفين، كما تفيد الخيرية والعدل والفضل والانصاف.

بهذا تفيد معاجم كلام العرب: فتاج العروس ينص على أن " الوَسَطُ مُحَرَّكَةً من كُلِّ شَيْءٍ أَعْدَلُه. ويُقَالُ: شَيْءٌ وَسَطٌ أَيْ بَيْنَ الجَيِّدِ والرَّدِيءِ ومِنْهُ قَوْلُه تَعَالَى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [2] قال الزَّجاجُ [3] : " فيه قَوْلانِ؛ قال بَعْضُهُم: أَيْ عَدْلاً، وقالَ بَعْضُهُم: خِيَاراً. اللَّفْظَانِ مُخْتَلِفَانِ والمَعْنَى وَاحِدٌ لأَنَّ العَدْلَ خَيْرٌ والخَيْرَ عَدْلٌ " [4].

وجاء في لسان العرب: " وسَطُ الشيء ما بين طرَفَيْه ... وهو منه، كقولك: قَبَضْتُ وسَط الحبْل، وكسرت وسَط الرمح، وجلست وسَط الدار ... فلما كان وسَطُ الشيء أَفضلَه وأَعْدَلَه جاز أَن يقع صفة، وذلك في مثل قوله تعالى وتقدّس: { وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } أَي عَدْلاً، فهذا تفسير الوسَط وحقيقة معناه ... وأَما الوسْط بسكون السين فهو ظَرْف لا اسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو(بَيْنَ) تقول جلست وسْطَ القوم أَي بيْنَهم " [5]

والمصطفى ﷺ يبين أن للوسطية معنى آخر ينبئ عن ديمومة رفعة المسلمين بين الأمم، ويتعدى الأغراض الدنيوية إلى غرض أخروي؛ وذلك حين تنصب الموازين يوم القيامة ويقول الكافرون ما جاءنا من نذير فيكون محمد ﷺ وأمته هم الفيصل بين الرسل وأممهم، ففي الصحيح أنه ﷺ قال: ۞ يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لأُمَّتِه: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَالوَسَطُ العَدْلُ } [6]

وبالنظر في هذه التعريفات المبثوثة في معاجم العربية على اختلافها، وفي قول الله تبارك وتعالى الذي تلاه النبي ﷺ في الحديث السابق يخرج المتأمل بأن الوسطية لغة تنضوي تحت تعاريف ثلاث:

الأول: وسطية معنوية هي الخيرية والاعتدال في كل شيء.

الثاني: وسطية حسية هي النقطة التي تقسم بالتساوي المسافة بين طرفي الشيء.

الثالث: وسطية أخروية جعلها الله عز وجل تفضيلا لمحمد ﷺ وأمته يوم القيامة.

وثمة تعريف رابع لم يرد في الاقتباسات السابقة من المعاجم، لكن تأمل الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذكر الوسطية أو أحد الاشتقاقات اللغوية القريبة منها يقود إلى القول بوسطية مقاصدية هي المرجعية الحضارية بين الأمم. وهي وسطية اختص الله بها المسلمين في الدنيا، وعليهم إقامتها ليحققوا مراد الله منهم في هذا الباب.

وهذا التعريف ــ الرابع ــ لم ينص عليه في المراجع التي اطلعت عليها، وإنما يستلهم من آية البقرة السالفة إذا استُصْحِبَ علم مقاصد الشريعة في تدبرها، وإن كانت من إشارة سابقة فهي أن الوسطية عدت " المنهج الذي يعبر عن حقيقة الإسلام، وعن خيرية أمته ووسطيتها وشهودها الإيماني والحضاري ".[7] ولا يخفى أن الحديث عن المنهج يختلف عن الحديث عن التعريف، خصوصا إذا علمنا أن صاحبه يعتمد التعريفات السابقة ولا يبدي فيها رأيا.

ومعظم المعرفين للوسطية يؤكدون أنها فضيلة بين رذيلتين فقد ورد في معرض تفسير آية البقرة المثبتة آنفا قولهم: " أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسَط، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه؛ غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه؛ تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها ".[8]

فالوسطية نقيض الغلو إذ " يتطلب الإسلام الاعتدال ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذي قام عليه بناء الأمة الإسلامية هكذا يقف الإسلام دينا وسطا ... لا يجنح إلى المثالية الخيالية ... كما لا يميل إلى الواقعية المتزمتة ... وإنما يقف وسطا، فهو يأخذ من المثالية ما تستوعبه من المثل العليا، ويأخذ من الواقعية ما تتضمنه من حزم وعدل وعزم ".[9]

عن الوسطية المقاصدية

تكمن الحاجة إلى هذا البيان في أن التعريف الرابع للوسطية يعد محدثا شيء ما، ولدا وجب إيضاح كنهه، وبيان مشاربه، ودواعي سوقه؛ حتى يتسنى لمن أراد التعرض له بالقبول أو الرفض معرفة ملابساته ومنطلقاته، فيكون الحكم عليه مستوفيا شروط النقد العلمي.

صياغة التعريف ــ وأسأل الله أن أكون قد وفقت فيها ــ تقول: (الوسطية المقاصدية هي المرجعية الحضارية بين الأمم). وهي وسطية اختص الله بها المسلمين، وعليهم إقامتها ليحققوا مراد الله منهم في هذا الباب.

أما معنى الوسطية فسبق بيانه، وأما المقاصدية في هذا التعريف فمراد بها الاستناد إلى مقاصد الشريعة الإسلامية؛ إذ لا يخفى أنها من مفاتيح فهم النص الشرعي، والمرجعية هي المعيار الذي يرجع إليه لقبول شيء أو رده، والحضارية نسبة إلى الحضارة وهي محصلة النتاج الانساني المعنوي والمادي.[10]

وعلى هذا التصور فالوسطية مرتبة من النضج الإيماني المفضي إلى السمو الحضاري بما يمنح الأمة الإسلامية مكانها المقدر لها بين الأمم، فتمتلك بذلك منزلة الشهود على كافة الخلق؛ إذا أدركنا أن كل الخلائق أمم؛ لا البشرية فقط {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم } [11] ومن ثم فالوسطية ليست فقط خصيصة أو معلما من معالم الإسلام؛ وإنما هي قبل ذلك وضيفة للأمة المسلمة، ورتبة لها فوق الأمم ودون الرسل [12]، وهذه المكانة وإن نص عليها القرآن فإنها تُبلَغ وتُحقق بالفهم المقاصدي للوحي، وجعل هذا الفهم الحضاري إنجازا على أرض الواقع في شتى مناحي الحياة معنويها وماديها، سالكة في ذلك سبيل التعبد لله تعالى بغية تحقيق مراده المبثوث في آية البقرة: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } ، وفي آل عمران: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } [13]، وفي قوله ﷺ : ﴿ نُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ لِي التُّرَابُ طَهُوراً، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ ﴾ [14] وغير هذه النصوص من الوحي كتابا وسنة مما دل على خيرية الأمة، وما أنيط بها من مسؤولية القيادة.

وباستيعاب المسلمين لحقيقة وجودهم كما قصد إليها الوحي، وتوليهم قيادة الكون تعيش الحضارة الانسانية أرقى مراحلها؛ إذ تؤسس على القصد الرباني الهادي إلى سعادة الأمم { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [15]، وذلك حين تتولى الأمة الإسلامية هذا البناء، أو تشهد بصحة الحضارة المنجزة بأيد غير إسلامية وفق المعايير التي وضعها المسلمون منبعثين من مبدأ إعمار الكون قصد رضا خالقه بما استعمرهم الأرض لهذا القصد { هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} [16]

عندئذ؛ وحين تبلغ الأمة الإسلامية منزلة الشهود بما أسسته من قوة شاملة لكل وجوه الحياة، تملك بموجبها الرقابة على نتاج الأمم، فلا يسري في الكون إلا ما أجازته الأمة الوسط إقناعا أو فرضا.

والقارئ الكريم يلاحظ أن الآيات دلت على هذه الرتبة بلفظ الأمة أو بصيغ الجمع، مما يوحي بأن عملا كهذا لا يناط بفرد؛ بل بكل أطياف الأمة، فهي مسؤولية ثقيلة، وأمانة عظمى، ومهمة شاقة ستلقى الأمة عنتا في طريقها إليها، وخصومات وعنادا من سائر الأمم، فسنة التدافع في الكون تقول ذلك، وينبئ عنه ورود قوله تعالى: { أُمَّةً وَسَطاً } ضمن سياق يتحدث عن تدافع الأمم من بداية قوله تعالى: { مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ } [17] وحتى قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [18]

المطلب الثاني

الوسطية في الكتاب والسنة

لم ترد لفظة الوسطية في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة، وإنما ورد ما يفيد هذا المعنى، وسأقتصر هنا على إيراد الآية الكريمة أو الحديث الشريف الحاويين في عبارتيهما ما اشتق من مادة الكلمة (و س ط) سواء قصد بهذا الاشتقاق الوسطية موضوع هذا البحث أم لم يقصد.

أولا القرآن الكريم

1. {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً }
2. {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ } [19]
3. {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ } [20]
4. {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ }[21]
5. {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً } [22]

ولا يخفى أن جميع الآيات المثبتة هنا ــ سوى الأولى ــ تتحدث عن التوسط في وجه من وجوهه، لكنها لا تفيد المعنى الذي ذهب إليه علماء الأمة فيما يتعلق بمنزلة المسلمين بين سائر الأمم، وعليه فلا حاجة لتتبع تفسيرها، وهذا لا يعني خلو الكتاب العزيز من آيات تتحدث عن مركزية أمة الإسلام وقيادتها للبشرية، فمن ذلك قوله تعالى: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } [23]

ولا شك أن الأمر لا يكون إلا عن قوة تفوق قوة المأمور، والنهي لا يكون إلا عن قوة تفوق قوة المنهي، ولا يكون الأمر أمرا بالمعروف، كما ولا النهي نهيا عن المنكر إلا إذا استندا إلى قاعدة أخلاقية تلبي مقصد الخالق وهذه القاعدة لا تكون كذلك إلا إن وافقت هدي الرسول ﷺ وهذا ما أسماه العلماء ثوابت الشريعة.

ثانيا السنة النبوية:

في كتب الحديث نقول متنوعة ذكر فيها النبي ﷺ أحد اشتقاقات مادة (و س ط) مثل: أوسط، ووسط، ووسطى، وسِطة وغيرها،

ولذا سأقتصر على إيراد بعض منها للتدليل على ثبوت هذا المعنى في السنة المطهرة وإن لم يفد ما البحث بصدده، فمن ذلك:

أنه ﷺ خَطَّ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ فِي وَسَطِ الخَطِّ خَطًّا، وَخَطَّ خَارِجًا مِنَ الخَطِّ خَطًّا، وَحَوْلَ الَّذِي فِي الوَسَطِ خُطُوطًا فَقَالَ: هَذَا ابْنُ آدَمَ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ الإِنْسَانُ، وَهَذِهِ الخُطُوطُ عُرُوضُهُ إِنْ نَجَا مِنْ هَذَا يَنْهَشْهُ هَذَا، وَالخَطُّ الخَارِجُ الأَمَلُ [24]

ومنها قوله ﷺ البَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ [25]

المطلب الثالث

مظاهر الوسطية في التشريع الإسلامي

يعد الإسلام في مفهومه الصحيح أكبر مظهر للوسطية؛ ذلك أنه دين قائم على الفطرة، وهي تركن إلى الاعتدال وعدم الإفراط في الشدة أو اللين، ولأن ما جبلت عليه النفوس لن تجد في تلقيه عنتا؛ جاء التوجيه من الله عز وجل لنبيه ﷺ بالتزام هذا المسلك { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [26].

وإذا كانت شريعة الإسلام تنظم حياة الناس في اعتقادهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم فإن نظامها قائم على الوسطية والاعتدال المجافيين للإفراط أو التفريط، لأن أمة يراد لها أن تكون وسطا بين الأمم، لا بد أن تعيش هذا النظام شعورا وواقعا، والمتأمل في دين الإسلام يجده وسطا في كل ما ذكر آنفا ومن مظاهر ذلك.

أولا: وسطية العقيدة

يقف الإسلام وسطا بين الإلحاد النافي لوجود إله في الكون، وبين الديانات القائلة بوجود آلهة متعددة، وله ردود على الفريقين؛ يرد على فريق الإلحاد بقول الله تبارك وتعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ } [27] فالملحدون فريقان: فريق لا يقر بوجود الإله على الاطلاق؛ وهؤلاء يقولون بالصدفة أو الطبيعة ولا يدرون أنهم اتخذوا الطبيعة صنما يعبد من دون الله، أما الفريق الثاني فاللادينيون وهؤلاء يقرون بوجود الإله لكنهم يتملصون من العبادات والشعائر " وَإِذَا أَقَرُّوا أَنَّ ثَمَّ خَالِقًا غَيْرَهُمْ فَمَا أَلذى يَمْنَعُهُمْ مِنَ الإِقْرَارِ لَهُ بِالْعِبَادَةِ دُونَ الأَصْنَامِ، وَمِنَ الإِقْرَارِ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ " [28].

ويرد على المشركين ومعددي الآلهة بقوله: { أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۞ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [29] ، وبقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [30].

ثانيا: وسطية العبادة

أما في الشعائر فالإسلام يقف وسطا بين المنقطعين للعبادة المتبتلين، وبين المنغمسين في ماديات الحياة دون أن تكون لهم وقفات روحية وشعائر تعبدية، ولعل حال الثلاثة الذين أرادوا الانقطاع للعبادة وموقف رسول الله ﷺ حيالهم خير دليل على ذلك فقد " جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " [31]

ومن مظاهر وسطية الشعائر متمثلة في مرونة أدائها، فمن ذلك الاستطاعة؛ إذ يطلب أداء ما فرض في حدود الاستطاعة دون عنت أو مشقة، وخير معبر عن هذا الوجه باب الرخص في الشريعة الذي يعد بالفعل تطبيقا لقوله تعالى: {مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [32]، وهذا ما نص عليه خير من تلقى القرآن وخير من فهمه بقوله ﷺ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ [33]

ثالثا: وسطية المعاملات

والمعاملات باب في الشريعة واسع؛ فهي تشمل الجوار، والعلاقات الأسرية، والمعاملات المالية وغيرها وسيكتفى هنا بإيراد أمثلة من وسطية التعامل المالي فمنها قول الله تبارك وتعالى: { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } [34] وقوله واصفا عباده: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [35]

المطلب الرابع

دعائم الوسطية

ليصل المسلمون لمرتبة الوسطية التي تؤهلهم أن يكونوا شهداء على الناس كما أمر بذلك تبارك وتعالى فإن عليهم الأخذ بالأسباب، والعمل الدؤوب، فكما فرضت عليهم العقيدة والشعائر والمعاملات وحسن الخلق، وطلب إليهم العمل على تحقيق ذلك واقعا في حياتهم ليكون إيمانهم كاملا، كذلك عليهم التماس أسباب قوة أمتهم مهتدين في ذلك بنور رسولهم ﷺ إذ هو أول المنفعلين بما أوحي إليه، وخير من قدم المثال العملي على واقعية رسالة الإسلام.

والقرآن الكريم أشار لذلك في مواطن عديدة منها قوله تعالى: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ } [36] وقوله عز وجل: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمنينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [37]

والتلاوة والتزكية والتعليم كلها تفاعلت في السابقين الأولين من المسلمين وهم الصحابة ﷺ إذ منهم كانت محاولات تنزيل آي القرآن على واقعهم المعيشي والرسول ﷺ يقرهم على ذلك أو يصوب لهم.

فهم المتلقون عن رسول الله ﷺ ، وهم حملة الوحي للبشرية؛ ولذا لزم الاقتداء بهم، لصدقهم وعدالتهم ومعايشتهم للفهم النبوي للوحي، وقد بين القرآن الكريم خصوصيتهم بقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [38]

وهنا دليل على أن الصحابة كانت منهم محاولات لفهم القرآن وتطبيقه في عباداتهم ومعاملاتهم، فعن " عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ [39] قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ }[40] الآيَةَ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالَيْنِ عِقَالٍ أَبْيَضَ وَعِقَالٍ أَسْوَدَ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي فَجَعَلْتُ أَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَأُنْظُرُ فَلاَ يَتَبَيَّنُ لِي فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: إِنْ كَانَ وِسَادُكَ لَعَرِيضًا، إِنَّمَا ذَاكَ بَيَاضُ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ " [41].

والحادثة الثانية وردت في الصحيح " عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ [42] ، قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ، فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَّبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلاَثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لاَ، مَا رَقَيْتُ إِلا بِأُمِّ الكِتَابِ، قُلْنَا: لاَ تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ – أَوْ نَسْأَلَ – النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ " [43]

ومن دعائم الوسطية، وأسباب تحققها في أمتنا جملة أمور منها:

1. إعادة النظر في قواعد الاستنباط من النص الشرعي لا بتعديلها أو إلغائها؛ وإنما بوضع قواعد جديدة يتمكن من خلالها دارس القرآن أو السنة من فهم مرادهما، بحيث لا يقتصر الاستنباط على الأحكام الشرعية فقط؛ بل يتعداها إلى استلهام دلالاتهما على نقاط التفوق في ميدان الحضارة الإنسانية بشتى جوانبه الفكرية كالفلسفة والفن والأدب والاقتصاد والاجتماع، والمادية التطبيقية كالفيزياء والرياضيات والزراعة والصناعة والهندسة، فلا شك أن قوة الأمم تقاس بمدى تمكنها من مفاتيح مقدرات حياتها وحياة الناس عموما.
2. البحث في النص الشرعي عن بواعث التمدن والعمران البشري؛ وهي إشارات مبثوثة في الكتاب العزيز وضمن مواضيعه المختلفة من عقائد وعبادات وقصص وأحوال الأخرة، وعلى الباحث المسلم أي كان مجال اختصاصه التقاط تلك الإشارات والاستهداء بنورها في إيجاد واقع جديد للأمة قائم على هدي الوحي.
3. الانفتاح على الأمم الأخرى ــ مع المحافظة على الثوابت ــ للاستفادة من تجاربها، والبدء من النقطة التي وصلت إليها، والحكمة ضالة المؤمن.
4. التحرر من تأثير الميول والنزعات الشخصية، والنظر للنص الشرعي قرآنا أو سنة نظرة باحث علمي متحرر من هوى النفس ومن نتائجه المسبقة التي يبحث لها عن أدلة. أو قواعد طائفته، أو أقوال شيوخه التي عدها مسلمات ويريد أن يجير النص لخدمتها.
5. توسيع دائرة الناظرين والباحثين في النص الشرعي بحيث تشمل المختصين في كل مجالات الحياة ــ إن لم يكن عموم المسلمين ــ ولا تقتصر على المختصين بالعلوم الدينية كما هو واقع الحال إلا ما نذر.

المطلب الخامس

نواقض الوسطية

نواقض الوسطية هي تلك القضايا الجانبية التي تشغل الأمة عن غايتها الأساسية، وتستزف طاقات أبنائها، فتمضي السنون والقرون تراوح مكانها بينما تسير الأمم الأخرى في طريق التقدم والإنجازات المادية والمعنوية، حتى أنها لتكاد تستولى على مكانة الأمة الإسلامية في قيادة البشرية، ومن جملة المعوقات التي تشد المسلمين للخلف:

1. قراءة النص الشرعي قراءة تقليدية (غير مقاصدية) وذلك بقصر القراءة على الجانب الروحي فقط، بينما القرآن يدعو مع ذلك إلى التدبر والتفكر واستخلاص العبر { مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ } [44] { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ } [45] { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } [46] ذلك أن طبيعة خطاب الوحيين ــ الكتاب والسنة ــ الشمولية { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [47] بحيث يجيب على جميع الأسئلة استنادا إلى شمولية مصدره وهو الوحي الإلهي {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } [48] { قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [49] {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [50] {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [51] ،

إذن فالقراءة الرامية إلى استلهام ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة من إشارات ترشد الأمة إلى تملك أسباب العزة تعد داعم من دعائم الوسطية التي يرمي هذا البحث إلى بيانها.

2. الغلو: ولا يقصد به التمسك بثوابت الشريعة أو التزام أوامره عز وجل واجتناب نواهيه؛ بل المقصود بالذم التشدد والتقعر في إظهار تأدية هذه الشعائر، وإظهار التميز عن الناس وعدهم في الهالكين، وأصحاب هذا المسلك هم الذين أنبأ عنهم من لا ينطق عن الهوى ﷺ بقوله: ﴿ يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي القِدْحِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الفُوقِ ﴾ [52] ولهذا حذر ﷺ من التطرف فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ ﴾ [53] وبين ﷺ أن المرجع في الدين إليه مخبرا ومظهرا، فمن كان متمسكا حقا فعليه بقوله ﷺ ﴿ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ ﴾ [54].

3. التفريط في الألتزام الديني لحد الانحلال والتنصل من كل الواجبات الشرعية والآداب الاجتماعية والثوابت الخلقية، فهذا يورث عدم الاكتراث بالناس مما يؤدي إلى ضعف العلائق الاجتماعية، والوشائج الأسرية، وبالتالي ضعف الانتماء للأمة، والنظر للحياة على أنها مصالح شخصية، ومنافع مادية آنية وهذا قد يقود إلى نظرة دونية للمجتمع المسلم حين تبدأ المقارنة بينه وبين غيره من المجتمعات فتغلب تلك بما لها من إنجاز مادي وتطور تكنولوجي. وتتولد عن هذا في نفس الفرد المسلم مكانة لغير إخوانه المسلمين تفوق ما للمسلم، وهذا منزلق في العقيدة خطير.

ولقد نبه تعالى أمة الإسلام إلى إن عاقبة التفريط في جنب الله فناء الأمم، وهي سنة إلهية مضت في أمم سابقة وعلى هذه الأمة الحذر منها، وبهذا خاطب رسوله ﷺ بقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ } [55]

4. التفرق: فتقسيم المسلمين إلى فرق وطوائف وجماعات وأحزاب من الأمور التي حذر منها الكتاب العزيز؛ بل شبه أصحابها بغير المسلمين وجاء ذلك في مواطن منها قوله: { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [56] ، وقوله عز وجل: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [57] وجعل القرآن الانتساب لهذه الشيع دليل انقطاع العلائق بالرسول ﷺ { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [58] .

وفي سبيل هذه الغاية ــ عدم التفرق ــ يذكر القرآن أتباعه بأنهم أمة لا طوائف، ولتحصين وسطيتهم عليهم الثبات فقط على رابطة الإسلام، ولذا خاطب فيهم روح الجماعة في غير ما موضع منها: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [59]، فالمسلم كلمة تزيح من حياة الفرد والأمة كل المسميات والانتماءات، والمتمسك بها لا يعني أنه يساوي بينه وبين الطوائف؛ فالطوائف والتنظيمات جميعها إنما اختارت لنفسها اسما وانتماء وجماعة غير التي اختارها تعالى لعباده.

وهو عز وجل قد اختار لمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مسلكا واحدا هو الإسلام: اسما، ومبادرة إلى الاستجابة لدعوته، وانتماء، وتدينا، وسلوكا، وحوارا مع الآخر، ووسيلة لمرضاة الله عز وجل، وحياة وموتا، وسببا لمنازل الفائزين في الآخرة. وبهذا الاختيار ختمت الرسالات { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ } [60]

ففي معرض التسمية يخبرنا القرآن أن أب المسلمين النبي إبراهيم عليه السلام سماهم كذلك { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ } [61] إذن فهي تسمية من عند الله على لسان نبي تدعي الانتساب إليه أكثر من أمة، وبشهادة نبي ختمت به الرسالات، وبإقامتها تمتلك الأمة مقومات الشهادة على الناس وقيادتهم.

والرسالة التي يحملها القرآن مضمونها الشامل هو الإسلام، وتلك هي البشائر التي يحملها الدين الخاتم {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [62]

ولذا فاعتناق الإسلام واجب، وتقلد غير اسمه مردود على صاحبه، بهذا صرح الكتاب العزيز في مواضع شتى أصرحها ما جاء في قوله تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ } [63]، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [64]

وعن المبادرة إلى هذه الدعوة والمجاهرة بها وبالانتماء للإسلام والعمل على الدعوة إليه دون سواه يقول تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [65] ويقول: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [66] وإن كان ثمة طائفة في هذه الأمة فالنبي ﷺ أولى بها، ولكنه أمر أن يكون من فرقة السواد الأعظم، وهو فهم يتأتى من أمره تعالى إياه بقوله: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ۞ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } [67]

وعن حقيقة الانتماء فإن على المسلم أن يزيح من حياته كل الأسماء والمسميات عدا الانتماء للمسلمين، ملتزما في ذلك أوامر الوحي: { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [68]

أما التزام هذه الصفة دون سواها واتخاذها مرجعية في الحياة والممات فنلمسه في القرآن الكريم : { قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [69] وفي خطابه لأتباع هذا الدين: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [70]

وفي مواجهة الآخر ــ غير المسلم ــ فإن القرآن يرشدنا إلى إن نتحصن بصفة المسلم وهوية الإسلام، ونترك وراء ظهورنا كل انتماءاتنا إلى الجماعات والطوائف والأحزاب والفرق وغيرها من المسميات: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [71] {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [72]

والتوسل إلى الله تعالى وطلب الفلاح منه من وسائله هذا الاسم والإلحاح بهذه الهوية، نفهم ذلك من بيان حال الانسان في رحلة عمره كما في قوله تعالى: { وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [73]

والفوز بالفلاح في الآخرة هو خاتمة هذه الرحلة من التمسك باسم وصفة المسلم { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۞ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۞ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ } [74]

5. التكفير وهو آفة عرفتها المجتمعات الإسلامية منذ القرن الأول، ونتج عنها انقسام هائل في الصف الإسلامي لا يزال قائما حتى اليوم، وهو نتيجة طبيعية للغلو والتطرف في تفسير المواقف والنصوص الشرعية، والنبي ﷺ حذر من هذا الاتجاه بقوله: ﷺ إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا ﷺ [75] وبقوله ﷺ أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلا رَجَعَتْ عَلَيْهِ ﷺ [76].

الخاتمة

يودع الباحثون في الخاتمة خلاصات بحوثهم، ويبثونها وصاياهم التي يرونها معينة على إنفاذ تلك النتائج، ومن ثم ظهور ثمرة جهودهم من بطون الأوراق إلى الحياة المعاشة وهذا حلم كل باحث.

وإذا كانت من نتيجة لمسها هذا البحث فهي الفهم المقاصدي للوسطية، وإذا كانت من توصية فهي الحث على العمل الدؤوب لتحقيق هذه الوسطية، طاعة لله عز وجل، وإنفاذا لأمره أن يكون لأمة الإسلام مكان الشهادة على الناس.

تحقيق وسطية الأمة، وتسلمها قيادة البشرية إنما يكون بعد نهضة شاملة في كل مناحي الحياة؛ وامتلاك أسباب القوة من علم، وتعلم، وتعليم، وصناعة، وزراعة واقتصاد وغيرها، وفوق كل ذلك نفوس طموحة فعلا لقيادة الكون غير عابئة بحالة الضعف التي ترتهن الأمة، مهتدية في ذلك بما عاشه رسول الله ﷺ من استضعاف في بداية دعوته، ثم كيف بالأيمان والعمل المثابر المتكامل استطاع في فترة وجيزة أن يترك أمته وفي يدها زمام الدنيا والآخرة.

الهوامش:

[1] ــ منها في الكويت والإمارات وموريتانيا، ومواقعها وصفحاتها متوفرة على شبكة المعلومات الدولية.

[2] ــ البقرة 143

[3] ــ إبراهيم بن السرىّ بن سهل أبو إسحاق الزّجّاج النحوي، صاحب كتاب معانى القرآن. توفى ببغداد 316هــ. هذه أطراف من ترجمته في: إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي: القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية: بيروت، ط 1، (1406 هــ - 1982م.) ، ج 1 ، ص 194 .كما له تراجم في البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط، 1 (1421ه ــ- 2000م.) وفي الأنساب لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، تحق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ن: محمد أمين دمج، ط 2، (1400ه. ــ 1980م.) . وفي الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط: 15 (2002 م.) وغيرها.

[4] ــ تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.، باب الطاءِ المُهْمَلَة، فصل الواو مع الطاء، مادة (وسط).

[5] ــ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، تحق: عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.، حرف الطاء المهملة، مادة (وسط) .

[6] ــ الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحق: مصطفى ديب البغا، ط 3، (1407 هــ - 1987 م.) ، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

نوح: 1 ، ح 3339

[7] ــ كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط 3 ، (2011) ، ص 11

[8] ــ جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، تحق: أحمد محمد شاكر، ط 1 (1420 هــ - 2000 م) مؤسسة الرسالة. بيروت.، ج 3 ، ص 142

[9] ــ نظرات في الإسلام، محمد عبد الله دراز (1392هــ. ــ 1972م.) دار الأرقم ، ص 87

[10] ــ لا يخفى أن تعريف الحضارة من المسائل المختلف فيها، وإنما ذهبت لهذا المعنى لمناسبته شمول شهادة الأمة الإسلامية على البشرية في شتى جوانب وجودها وفي مآلها في الدار الآخرة كذلك.

[11] ــ الأنعام 38

[12] ــ ينظر: زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، ج 1، ص 438

[13] آل عمران 110

[14] ــ المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحق: كمال يوسف الحوت، ط 1، (1490هــ.) مكتبة الرشد، الرياض، كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ مَا أَعْطَى اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ ، ح 31647 . وهو في مسند أحمد بن حنبل، تحق: أحمد محمد شاكر، ط 1، (1416هــ - 1995 م) دار الحديث، القاهرة، مسند عثمان بن عفان ﷺ ، ومن مسند علي بن أبي طالب ﷺ ، ح 763 ، وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: " إسناده صحيح. كما ورد في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحق: حسام الدين القدسي (1414 هــ، 1994 م) ، مكتبة القدسي، القاهرة، كتاب الطهارة، باب في التيمم، ح 1406 وأعله بعبد الله بن محمد بن عقيل، ثم قال: " وقد رجحنا من قبل أن عبد الله بن محمد بن عقيل ثقة، فالحديث صحيح. "

[15] ــ طه 23

[16] ــ هود 61

[17] ــ البقرة 105

[18] ــ البقرة 153

[19] ــ البقرة 238

[20] ــ المائدة 89

[21] ــ القلم 28

[22] ــ العاديات 5

[23] ــ سبق تخريج الآية في الهامش 13

تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 ، (1415 هـ.) ج 4، ص 388

[40] ــ البقرة 187

[41] ــ السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3 (1424 هـ - 2003 م)، كتاب الصوم، باب الْوَقْتِ الَّذِى يَحْرُمُ فِيهِ الطَّعَامُ عَلَى الصَّائِمِ، ح 8256 .كما رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ فِى الصَّحِيحِ ، م س، عَنْ حَجَّاجِ بْنِ مِنْهَالٍ عَنْ هُشَيْمٍ . وَأَخْرَجَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ في المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وقدمت لفظ البيهقي هنا لاستيعابه الحادثة أكثر من سواه.

[42] ــ أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي كان من علماء الصحابة وممن شهد بيعة الشجرة، روى حديثا كثيراً وأفتى مدة، عاش ستا وثمانين سنة ومات في أول سنة أربع وسبعين، له في الصحيحين ثلاثة وأربعون حديثا انفرد البخاري بستة عشر منها وانفرد مسلم باثنين وخمسين. هذا بعض ترجمته في تذكرة الحفاظ، محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، المعروف بالذهبي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي

دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، (1415 هـ - 1994 م) ، ج 1، ص 36

[43] ــ صحيح البخاري، م س، كتاب فضائل القرآن، باب فضل الفاتحة، ح 5007

[44] الأنعام 38

[45] النحل 89

[46] ــ ص 29

[47] يوسف 111

[48] البقرة 255

[49] ــ الرعد 16

[50] ــ الحجر: 21

[51] ــ الحج 70

[52] ــ صحيح البخاري، م س، كتاب فضائل القرآن، بَابُ إِثْمِ مَنْ رَاءَى بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ أَوْ تَأَكَّلَ بِهِ أَوْ فَخَرَ بِهِ، ح 5058

[53] ــ سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، ح 3029

[24] ــ سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، ط2 (1395 هـ - 1975 م)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ح 2454، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ . وهو كذلك في سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، ح 4231

[25] ــ سنن الترمذي، م س، أبواب الأطعمه، بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ الأَكْلِ مِنْ وَسَطِ الطَّعَامِ، ح 1805 وقال حسن صحيح. ويرويه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، ح 4231

[26] ــ الروم 30

[27] ــ الطور 35 ، 36

[28] ــ الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ، تحق : أحمد عبد الحليم البردوني ، ط 2 ، مصر : القاهرة ، دار الشعب) 1372هـ. (، ج 17 ، ص 46

[29] ــ الأنبياء 21 ، 22

[30] ــ المؤمنون 91

[31] ــ صحيح البخاري، م س ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح 5063

[32] ــ المائدة 6

[33] ــ مسند أحمد بن حنبل، م س، مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبد الله بن عمر، ح 5866 وصححه أحمد شاكر في الهامش

[34] ــ الإسراء 29

[35] ــ الفرقان 67

[36] ــ البقرة 151 ، 152

[37] ــ آل عمران 164

[38] ــ التوبة 100

[39] ــ عدي بن حاتم بن عَبْد اللَّه بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس، وأبوه حاتم هُوَ الَّذِي يضرب بِهِ المثل في الجود، وفد عدي عَلَى النَّبِيّ ﷺ سنة تسع فِي شعبان، وقيل: سنة عشر، فأسلم وكان نصرانيًا. وثبت على إسلامه في الردة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة، وشهد صفّين مع علي. ومات بعد الستين وقد أسنّ. هذه أطراف من ترجمته في أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، (1415هـ - 1994 م) ، ج 4، ص 7 . وفي الإصابة في

[54] ــ صحيح مسلم، م س، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ح 2380

[55] ــ الأنعام: 42 ، 44

[56] ــ آل عمران 105

[57] ــ الروم 30 ، 31 ، 32

[58] ــ الأنعام 159

[59] ــ آل عمران 102

[60] ــ المائدة 3

[61] ــ االحج 78

[62] ــ النحل 102

[63] ــ آل عمران 19

[64] ــ آل عمران 85

[65] ــ فصلت 33

[66] ــ الأنعام 162 ، 163

[67] ــ الزمر 11 ، 12

[68] ــ النمل 91

[69] ــ البقرة 136

[70] ــ سبق تخريج الآية في الهامش 59

[71] ــ آل عمران 64

[72] ــ العنكبوت 46

[73] ــ الأحقاف 15

[74] ــ الزخرف 66 ، 73

[75] ــ صحيح مسلم، م س، كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ حَالِ إِيمَانِ مَنْ قَالَ لأَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَا كَافِرُ، ح 91

[76] م ن، ح 92